نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي خلال القرن التاسع عشر

د. أمين محمود *

بدأت الاهتمامات اليهودية الجادة بفكرة استعمار فلسطين والاستيطان فيها ابتداء من أواسط الثلاثينات من القرن التاسع عشر . اما قبل ذلك التاريخ فالصلة بين اليهود وفلسطين كانت في غالبيتها مجرد صلة دينية عاطفية ، ورغبة لدى بعض الفئات اليهودية المتدينة في الاقامة المؤقتة قرب الاماكن المقدسة للتعبد وممارسة الطقوس الدينية . وكان « بعث » الدولة اليهودية في فلسطين مرتبطا لديهم بحدوث معجزة الهية يتمخض عنها مجيء (المسيح المنتظر) الذي سيعيد بناء « هيكل سليمان » ويقود العالم نحو « الخير والسلام » .

ولذلك فلا غرابة اذا كانت فكرة استعمار فلسطين وانشاء دولة يهودية فيها قد وجدت المنشأ المناسب لها في احضان الدول الغربية الكبرى وبالذات فرنسا وبريطانيا . (١) ففي اثناء انهماكها في بناء امبراطورياتها الاستعمارية ، أخذت هذه الدول تجلب العديد من « المستوطنين البيض » وتهيىء لهم سبل الاستقرار في المواقع الحيوية من مستعمراتها كي يكونوا بمثابة الدرع الواقي لهذه المستعمرات من اي خطر يتهددها ، بالاضافة الى الاستعانة بهؤلاء المستوطنين في استغلال ثروات هذه المستعمرات الاقتصادية

---

* استاذ التاريخ بكلية الآداب في جامعة الكويت

* تعالج هذه الدراسة نشأة النزعة الاستيطانية في الفكر اليهودي الغربي قبل مجيء هرتزل . وستعتمد الدراسة في ذلك على آراء مفكرين ثلاثة كان لهم دور اساسي في نمو هذه النزعة وهم : يهودا القلعي وتسفي كاليشر وموزس هس . أما بالنسبة للمفكرين اليهود الروس فسيتعرض لهم الباحث في دراسة منفصلة لاحقة .

(١) تعرض الباحث لهذا الموضوع في دراسة سابقة ، انظر : أمين محمود ، التوسع الاستعماري الغربي وفكرة الدولة اليهودية (١٧٩٨ — ١٩٧٧) ، **دراسات** (عمان : الجامعة الاردنية ، ايار ١٩٧٨) مجلدة عدد ١ ص ١٩—٤٥ ، وهنالك دراسة تحليلية قيمة تتعرض لهذا الموضوع لصادق جلال العظم ، **الصهيونية والصراع الطبقي** (بيروت : ١٩٧٥) ص ٤٩—٧٦ .

وخير مثال على ذلك ما حدث في الجزائر وروديسيا وجنوب افريقيا .(٢) ونظرا لوقوع فلسطين على طريق المستعمرات الغربية في شرق آسيا بالاضافة الى تمتعها بموقع استراتيجي هام في قلب الدولة العثمانية محط اطماع الدول الكبرى انذاك ، فان هذه الدول اخذت منذ مطلع القرن الماضي تتسابق على ايجاد موطىء قدم لها في هذه المنطقة باية وسيلة ممكنة . وكان من اهم هذه الوسائل طرح المشاريع الاستيطانية الرامية الى انشاء كيان يهودي في فلسطين يكون مرتبطا بأوثق العلاقات مع الدولة الكبرى صاحبة المشروع ، مما يهيىء لهذه الدولة سبيل التسرب داخل الدولة العثمانية والحصول على الجزء الذي تطمح اليه من ممتلكات الدولة العثمانية حين تحين الفرصة المناسبة لاقتسام هذه الممتلكات .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف سعت الاوساط الامبريالية في اوروبا الغربية الى اثارة الاهتمام اليهودي بهذه المشاريع الاستيطانية ، غير ان الاستجابات اليهودية الاولية لهذه المشاريع لم تتخذ طابعا جماهيريا واسع النطاق ، وانما اقتصرت على البرجوازية اليهودية ذات المصالح الحيوية المتداخلة مع مصالح الفئات الحاكمة في الدول الغربية الكبرى . ففي فرنسا اخذت البرجوازية اليهودية تقوم بانشاء وتمويل المستعمرات الزراعية في فلسطين بهدف دعم المصالح الاستعمارية لامبراطورية نابليون الثالث واطماعها التوسعية في منطقة « الليفانت » عن طريق خلق أقلية يهودية قوية تتحالف مع الاقلية

---

(٢) كما ان عملية الاستيطان تهيىء للدول الاستعمارية التخلص من الفائض البشري الموجود لديها وتخفف بالتالي من وطأة الضغوط الاجتماعية المفروضة عليها من الداخل . ويورد المعلم في مرجعه السابق ص ٩٤–٩٥ الكلام الذي أورده لينين على لسان سيسيل رووس الاستعماري الانجليزي في وصف هذا الوضع بقوله : « كنت امس في الايست اند East End (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين واستمعت هناك للخطابات الهائجة التي لم تكن سوى صرخات من أجل الخبز . واثناء عودتي الى المنزل تأملت في هذا المشهد فاصبحت أكثر اقتناعا من أي وقت مضى باهمية الامبريالية ... ان فكرتي المحببة هي الحل للمسألة الاجتماعية . بعبارة أخرى ، من اجل انقاذ الاربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب اهلية دموية ينبغي علينا نحن رجال الدولة المسؤولين عن المستعمرات الاستيلاء على أراض جديدة لنوطن فيها فائض السكان ، ولنوفر اسواقا جديدة للبضائع التي تنتجها المصانع والمناجم . فالامبراطورية كما كنت اقول دوما ، هي مسألة تتعلق بخبز الناس وغذائهم ، فاذا كنتم تريدون تجنب الحرب الاهلية فعليكم ان تصبحوا امبرياليين ... هذا النص أورده المعلم نقلا عن لينين ، **الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية (موسكو : ١٩٦٧)** القسم السادس . ويبدو أن البرجوازية اليهودية ، كما سنلاحظ بعد قليل ، ادركت اهمية مشروع توطين اليهود في فلسطين للتخلص من عبء المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي سببها لهم فقراء اليهود .

المارونية الموالية لفرنسا لخلق مراكز نفـوذ قوية للمصالـح الفرنسية في المنطقة (٣) . وفي الوقت الذي اخذت فيه بريطانيا تسعى جاهدة لمد سيطرتها على منطقة الشرق وجدنا البرجوازية اليهودية الانجليزية لا تدخر وسعا في دعم مصالح دولتها الاستعمارية ، وخير مثال على ذلك تمويل آل روتشيلد للصفقة التي عقدها رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي Dizraeli لشراء اسهم قناة السويس من الخديوي اسماعيل ، بالاضافة الى قيامهم بتمويل العديد من المشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين بغية ايجاد اقليـة يهودية قويـة يمكـن لبريطانيا الاعتماد عليها في تثبيت دعائم مصالحها الاستعماريـة في المنطقـة .

وبالاضافة الى سعيها وراء المكاسب المادية ، فان البرجوازية اليهودية وجدت في انشاء وطن يهودي في فلسطين وسيلة للتخلص من عبء فقـراء اليهود الذين بدأوا يفدون الى دول اوروبا الغربية باعداد متزايدة وذلك من روسيا وبعض اجزاء اوروبا الشرقية . لقد أدركت البرجوازية اليهودية انه من الصعب على هؤلاء المهاجرين الاندماج السريع في المجتمعات الغربية نظرا للحواجز اللغوية والثقافية مما أدى الى خشيتها من أن تتولد بين الشعوب الاوروبية موجة من الكراهية العنصرية ضد اليهود بشكل عام . ولذلك فقد لجأت الى اقامة مؤسسات وجمعيات بهدف تنظيم عملية تهجير فقراء اليهود وتوطينهم خارج القارة الاوروبية في فلسطين او غيرها خشية أن يؤثر بقاؤهم في اوروبا الغربية علـى الحقـوق والامتيازات التـي كان يتمتع بهـا اليهود الغربيون .

ومما زاد من تخوف البرجوازية اليهودية ما كان يشاع في ذلك الوقت من اشتراك اعداد كبيرة مـن فقراء اليهـود في الحركات الثورية والاحزاب اليسارية المناهضة للانظمة الرأسمالية الغربية ، وبدت هذه الظاهرة وكأنها تشكك في وطنية واخلاص اليهود عامة للبلاد التي كانوا يعيشون فيها . وكان هذا في حد ذاته ، على ما يبدو عاملا هاما في دفع البرجوازية اليهودية للبحث عن « وطن » يهودي خارج القارة الاوروبية تتجه اليه هذه الهجرات .

---

(٣) شهدت هذه المنطقة في أواسط القرن الماضي صراعا استعماريا حادا بين فرنسا وانجلترا . وكانت منطقة الشرق العربي مجال تنافس شديد بين هاتين القوتين وقد نجحت فرنسا في الحصول على امتيازات كثيرة في مصر كان أهمهـا امتياز شـق قناة السويس ، بالاضافة الى تقوية نفوذها في جبل لبنان عن طريق صلتها الوثيقة مع الاقلية المارونية ، وبالطبع فان انشاء وطن يهودي عميل لفرنسا في فلسطين يحقق مكاسب كبيرة للنفوذ الفرنسي في المنطقـة .

وفي اعقاب ثورات عام ١٨٤٨ في اوروبا اخـذت البرجوازية اليهودية تستعمل المنطق القومي العنصري في دعوتها للاستيطان اليهودي في فلسطين مستعينة بنفس المبررات التي استعملتها الحركات القومية الاوروبية في تبرير نضالها آنذاك من أجل حريتها ووحدتها ، بل واخذت تكيل المديح لليهـود كعنصر بشري استطاع المحافظة على نقاوته وتفوقه على العناصر البشرية الاخرى رغم جميع التحديات التي واجهها عبر العصـور المتتالية . ولعـل الهدف الذي كانت تسعى اليه البرجوازية اليهودية من وراء استعمالها لهذا المنطق هو غرس النزعة القومية العنصرية بين الجماهير اليودية وحثهم على الهجـرة الـى فلسطـين .

ولم يقتصر دور البرجوازية اليهودية على المساهمة المادية في انشـاء المؤسسات والجمعيات وتمويل بعض المستوطنات الزراعية في فلسطين وانما لجأت الى سلاح فعال وهو تبني كوادر فكرية يهودية تعمل في خدمتها وتعبر عن مصالحها من خـلال استثمار قـوة الكلمة بأبعادهـا الدينية والقومية والاقتصادية بين اوساط يهودية فقيرة بائسة لا تعي سوى دلالات الكلمـة الظاهرية ... وكانت هذه الاوساط بالتالي اول ضحية من ضحايا الوهـم الصهيونـي الاستعمـاري .

* ★ *

من اوائل المفكرين الذين عملوا ضمن اطار البرجوازية اليهودية الحاخام يهودا القلعـي (٤) Yehuda Alkalai (١٧٩٨ ــ ١٨٧٨) . كـان القلعي ينتمي في مطلع حياته الى الفئة التقليدية المحافظة مـن اليهود . فولادتـه ونشأته تمت في كنف اسرة يهودية متدينة كانت تحتل مركز الزعامة الروحية بين يهود الصرب . أمضى القسط الاكبر من صباه في مدينة القدس حيث تأثر هناك بالنزعة الصوفية اليهودية المسماة بالكاباالاه (٥) Cabala والتي وفرت

---

(٤) بالرغم من أن نشأة القلعي كانت في منطقة البلقان الا أن منطلقات فكره واهتماماته كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع اليهودي في اوروبا الغربية . وقد استغل اوضاع يهـود روسيا واوروبا الشرقية ليتخذ منها وسيلة لخدمة مصالح البرجوازية اليهودية في اوروبا الغربية كما سيتضح من مناقشة الافكار والاراء التي طرحها . وينطبق هذا ايضا على كاليشر الذي نشأ في الجزء البروسي من بولنـدا .

(٥) وتكتب احيانا « قبالة Kabbalah » انظر : عبد الوهاب المسيري ، **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية** (القاهرة : ١٩٧٥) ص ٢٩٠ . يقصد بالكاباالاة علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود ومعناها الاصلي في اللغة العبرية « التراث » وكان يقصد بها في الاصل التراث اليهودي الشفوي . وقد اصبحت الكاباالاة في القرن السادس عشر تمثل التفكير الاسطوري في اليهودية البعيد عن العقلانية ، وحلت محل الكتب اليهودية

له دراسة عميقة للتلمود وتفسيراته الباطنية التاويلية . وفي عام ١٨٢٥ تم اختياره حاخاما للطائفة اليهودية في سملين عاصمة الصرب آنذاك ، ثم انتقل منها فيما بعد ليصبح حاخام الطائفة اليهودية في زيمون بالقرب من يوغسلافيا .

مارس القلعي اول نشاط سياسي له خلال احداث البلقان حين أصدر نداء للطوائف اليهودية يطالبها بتأييد ودعم الشعوب البلقانية في ثورتها ضد الحكم العثماني (٦) وقد استغل هذه اليقظة القومية في البلقان ليتخذ منها في كتابه **اسمعي يا اسرائيل** الصادر عام ١٨٣٤ نموذجا ليهود العالم كي يقتدوا به ويعملوا بمنتهى « التصميم » و « الجدية » من اجل تحقيق العودة الى « أرض الآباء » في فلسطين . ودعا الى البدء فورا ببناء المستوطنات اليهودية في فلسطين تمهيدا لاقامة دولة « بني اسرائيل » (٧) عليها دون اي انتظار لمجيء المسيح المخلص المنتظر . وقد اشار الى ذلك بقوله : « ... لقد أمر الله تبارك اسمه بان تتم توبتنا عن طريق يقظتنا لكي نرفع من قيمتنا لديه .. وعندما يرى الله رغبتنا في التوبة تمجيدا لاسمه ... حتى ولو تم ذلك بحجم خرم الابرة ، فانه سيرسل لنا نجدته ويفتح الباب على مصراعيه ثم يزيدنا عددا وعدة ... ولهذا لا يمكننا الانتظار حتى يظهر المسيح ... ويعيدنا الى اورشليم ــ القدس .. » (٨) ونظرا لان هذه الفكرة كانت تتعارض مع المفهوم الديني السائد ، فقد استغل القلعي مكانته الدينية واخذ يستعين بواحدة من الاساطير الصوفية التي كانت تنص على ان مسيحا آخر سيسبق المسيح المنتظر ويقود اليهود في حروب « ياجوج وماجوج » لفتح فلسطين

= الدينية المعروفة . وارتبطت الكابالاة بعدد من العلوم السحرية مثل التنجيم والقراءة الكف وصنع الاحجبة . وتحضير الارواح . ويؤمن دعاة هذه العقيدة بان كل حرف ونقطة واشارة وردت في التلمود ترمز الى معنى خفي باطني . وقد انتشرت الكابالاة بين يهود اوروبا الشرقية وكانت تبلغ ذروتها بينهم ايام البؤس والكوارث لتمنحهم « قوة داخلية » تحميهم من الاندماج في مجتمعات الجوييم . انظر المصدر السابق ص ٢٩٠ــ٢٩١ .

(٦) وكان من اهم هذه الثورات ثورة اليونان عام ١٨٢١ التي كانت تطالب باستقلالها عن الدولة العثمانية . وقد اثارت هذه الثورة اضطرابات متلاحقة للعثمانيين في منطقة البلقان مما اضطر السلطان الى الاستنجاد بمحمد علي والي مصر في ذلك الوقت : (انظر : William Yale, The Near East (Ann Arbor : 1958) PP. 127 - 131

(٧) يعتبر القلعي اول مفكر يهودي في القرن التاسع عشر ينادي بانشاء دولة يهودية في فلسطين .

(٨) تسفي زهافي ، من **هيحاتام سوفير حتى هرتزل** (القدس : ١٩٦٧) ص ١٥٠ ، نقلا عن صبري جريس ، **تاريخ الصهيونية** (بيروت : ١٩٧٧) ، ج ١ ، ص ٢ .

عنوة وذلك على ما يبدو في محاولة منه للتغطية على هذا التعارض . وقد دعا القلعي الى قيام هجرات يهودية جماعية الى فلسطين مشيرا الى ان المسيح الآخر سيظهر من بين هؤلاء المهاجرين الرواد . وكان القلعي يطمع من وراء استخدام مثل هذه الاساطير ايضا الى كسب تأييد الفئات اليهودية المتدينة المحافظة لدعوته الاستيطانية ، وفي نفس الوقت كان يهمه بالطبع ارضاء الفئات اليهودية العلمانية بغية المحافظة على تآلف ووحدة العمل اليهودي « من اجل صهيون » .

وفي عام ١٨٣٩ اعلن القلعي انه قد توصل بناء على حسابات اجراها بموجب علم الكابالاة الى نتيجة مفادها ان عام ١٨٤٠ سيكون عام « الخلاص اليهودي » والعودة الى « أرض الميعاد » . ولذا فانه أخذ يحث اليهود وخاصة الفقراء منهم في اوروبا الشرقية على الاسراع في الهجرة الى فلسطين تحت لواء « المسيح الانسان » استعدادا لمجيء المسيح المنتظر . ولعله ليس من قبيل الصدفة ان تجيء هذه النبوءة في الوقت الذي بدأ فيه محمد علي يتراجع عن فتوحاته في بلاد الشام أمام ضغوط بريطانيا وحلفائها ، وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعداد لعقد مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ ، حيث كان من ضمن البنود المقترحة على جدول اعمال المؤتمر بند يتعلق بامكانية انشاء دولة يهودية في فلسطين لحماية الشرق العربي من خطر اي محاولة وحدوية جديدة تنبع من مصر . ومما يسترعي الانتباه ايضا ان تجيء هذه النبوءة في اعقاب زيارة قام بها القلعي لعدد من دول اوروبا الغربية وفي مقدمتها بريطانيا حيث حظي بمقابلة بعض المسئولين فيها وعدد من رجال المال اليهود . ولعل في هذا ما يبرر اتهام القلعي بانه كان يستغل المعتقدات الدينية لدى الفئات اليهودية الفقيرة المحافظة بغية تشجيعها على الهجرة الى فلسطين لخدمة مصالح الامبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية .

ولدى انفضاض مؤتمر لندن دون تبنيه لمشروع الدولة اليهودية ، وبالتالي فشل نبوءة القلعي بحلول « الخلاص اليهودي » لجأ هذا الحاخام اليهودي الى تبني فكرة جديدة اسماها فكرة « الخلاص الذاتي التدريجي » وكان المقصود بهذه الفكرة العمل على بناء كيان يهودي في فلسطين بشكل منظم وتدريجي لا بشكل عفوي ومفاجيء . وقد القى بمسئولية انشاء وتمويل المستوطنات اليهودية على عاتق اقطاب المال اليهود في حين يقوم فقراء اليهود بتقديم العنصر البشري اللازم لعملية الاستيطان ، وقد أوضح ذلك بقوله : « ... يتوجب علينا بناء البيوت وحفر الابار وزرع اشجار الكرمة والزيتون . وانه لامر في غاية الاهمية ان يظل اغنياء اليهود يعيشون في أرض الشتات وذلك لامداد اخوانهم المستوطنين بما يحتاجونه من عون

ومساعدة ... اننا لا نستطيع الهجرة على نطاق واسع وذلك كي لا نصبح في النهاية مثل البدو مبعثرين في الخيام في مختلف ارجاء الديار المقدسة .. الخلاص يجب أن يتم باناة والارض يجب ان يتم بناؤها واعدادها وتحضيرها بالتدريج » . (٩) وقد اشار القلعي أيضا الى أهمية بقاء أغنياء اليهود في الدول الكبرى لما يمكن ان يقوموا به من دور في توفير الحماية للمستوطنين اليهود مستغلين بذلك نفوذهم لدى الحكومات الاوروبية ومقدرتهم على حث هذه الحكومات للتدخل لدرء اية اخطار قد يتعرض لها هؤلاء المستوطنون في فلسطين . (١٠)

اما بالنسبة للبرنامج الذي وضعه القلعي « للخلاص الذاتي التدريجي » فقد اشتمل على البنود التالية :

١ ــ الدعوة الى عقد جمعية يهودية عامة Great Assembly تكون مهمتها ارساء دعائم تنظيم يهودي شامل تتولى ادارته ورعاية شئونه مجموعة من حكماء اليهود يتم اختيارهم بواسطة « اولئك الاقطاب الذين يستفيد الجميع من نفوذهم » ويقصد بهم بالطبع الاثرياء اليهود .

---

(٩) Arthur Hertebarg, The Zionist Idea (New York : 1959), P. 105.

انظر ايضا الترجمة العربية ص ١٠ــ١١ وقد لجأ هنا القلعي الى المنطق الاستعماري التقليدي حيث اشار الى ان هؤلاء المستوطنين اليهود سيستقرون في الارض الخربة ويحولونها الى ارض مزدهرة ينشرون المفاهيم الحضارية الحديثة بين سكانها « المتخلفين » . وقد استعمل نفس هذا المنطق دعاة الاستيطان اليهودي من الصهاينة الانجليز امثال اللورد شافتسبوري وهنري تشرشل وغيرهم .

لمزيد من التفاصيل انظر العظم المرجع السابق ، ومحمود ، المرجع السابق أيضا .

(١٠) لعل السر في حرص القلعي على توفير الحماية لليهود مصدره المتاعب التي واجهها يهود دمشق عام ١٨٤٠ ويورد عبد الكريم غرايبة تفاصيل تلك المتاعب على النحو التالي : « ... اتهم اليهود في دمشق بقتل الاب توما الكبوشي . وكان الاب قد اختفى في شباط ١٨٤٠ فاهتم القنصل الفرنسي بالامر واقنع السلطات المحلية بتفتيش الحي اليهودي والتحقيق مع بعض اليهود لا سيما الحلاق سليمان اليهودي ووقع سليمان على اعتراف بانه ذبح الاب توما بأمر الحاخامين . ووجدت بعد ذلك عظام بشرية ولحم بشري في ساقية في حارة اليهود فقويت الادلة ضد اليهود . واخيرا أعلن الحاخام موسى أبو العافية اسلامه واعترف بذبح الاب توما ليصنع من دمه فطيرا أرسل قسما منه الى بغداد . واعتقل عدد من اليهود . وتضامن اليهود في دمشق وانحاء العالم لاثبات براءة المتهمين . وأخيرا قدموا مبلغا من المال الى محمد علي باشا كدليل على براءتهم فاطلق الحاكم المصري شريف باشا سراح المتهمين واغلق التحقيق وحفظت القضية . ووقف قنصلا بريطانيا وروسيا الى جانب اليهود خلال هذه الزمة » . وقد ساهم القلعي في كتابة المقالات دفاعا عن اليهود خلال هذه الازمة . انظر عبد الكريم غرايبة ، **سوريا في القرن التاسع عشر** (القاهرة : ١٩٦١ ــ ١٩٦٢) ص ١٢٥ .

ويقـــوم مجلس حكماء اليهـــود بالاشراف على عملية « استعادة » فلسطين عن طريق القيام باستعمارها وانشاء المؤسسات الاستيطانية فيهـــا . (١١)

٢ ـــ انشاء صندوق قومي يهودي لجمع المساعدات والتبرعات المالية من اثرياء اليهود وغيرهم لتمويل انشاء المستوطنات في فلسطين والبدء بعملية تهجير فقراء اليهود للاستقرار فيها والعمل على شراء المزيد مـــن اراضيها على أن تكون ملكيتها باسم « الشعب » اليهودي باجمعه . وقد تبنى الصندوق القومي اليهودي الذي تأسس عام ١٩٠١ الافكار الرئيسية التي وضعها القلعي لنشاط هذا الصندوق .

٣ ـــ اقامة صندوق اخر للاشراف على جمع الضرائب من المستفيدين من عملية الاستيطان كما اشار القلعي الى ضرورة تحصيل نسبة معينة من الضرائب من باقي الفئات اليهودية المستقرة في ارض الشتات لقاء الحماية التي يوفرها لهم مجلس حكماء اليهود في مواطن سكناهم .

٤ ـــ الحصول على قرض قومي تشارك في دفعه مختلف الفئات اليهودية لاستثماره في اقامة عدد من المشاريع العامة في فلسطين مقابل نسبة مئوية معينة من الفائدة (١٢) .

ولتنظيم عملية استثمار الارض الفلسطينية ، دعا القلعي البرجوازية اليهودية الى تأسيس شركة مساهمة استيطانية تقوم ببذل محاولات «لشراء» فلسطين من السطان العثماني أو على الاقل الحصول على حق استغلالها لمدة معينة مقابل أجر سنوي ، ومما قاله في هذا الصدد « .. اطلب من اخوتنا انشاء شركة على غرار شركات التأمين ضد اخطار الحريق وشركات السكك الحديدية ، وتتوجه هذه الشركة الى السلطان العثماني لاقناعه بان يعيد الينا ارض اسلافنا مقابل مبلغ من المال او مقابل اجر سنوي . وبمجرد أن يتم اعادة بعث اسم اسرائيل فوق ارضنا فان اليهود على مختلف مشاربهـــم سيهبون لمساعدة هذه الشركة بكل وسيلة ممكنة . وبالرغم من أن هـــذه المجازفة ستبدأ بداية متواضعة الا أن مستقبلها سيكون بالتأكيد مستقبـــلا

---

(١١) يلاحظ أن القلعي في دعوته لانشـــاء مجلس حكماء اليهود كـــان متأثرا على ما يبـــدو بالسنهدرين Sanhedrin اليهودي الذي عقده نابليون عام ١٨٠٦ في باريس ويقصـــد بالسنهدرين الهيئة القضائية العليا التي كانت قائمة في العصور القديمة . وقد شارك في ذلك الاجتماع « حكماء اليهود » من مختلف انحاء الامبراطورية النابليونية لدراسة احوال اليهود عامة واتخاذ التوصيات اللازمة بشأنهـــا .

(١٢) يلاحظ ان هذه الافكار في مجملها كانـــت قريبة من الافكـــار التي تبناهـــا فيما بعد تيودور هرتزل . ويقال ان جد هرتزل سيمون لوب كان من تلامذة القلعي والمعجبين بآرائه .

عظيما » . (١٣) ومن الجدير بالملاحظة ان اقتراح القلعي باستئجار فلسطين لمدة معينة قد جاء مباشرة في اعقاب محاولة بالمرستون ، وزير خارجية بريطانيا آنذاك الحصول من الدولة العثمانية على حق حماية اليهود المقيمين في فلسطين لمدة عشرين عاما (١٤) . ولعل هذا التجاوب في المواقف بين القلعي وبالمرستون ليس من قبيل الصدفة المحضة لا سيما وانها تكررت اكثر من مرة .

ركز القلعي اهتماماته في اواخر ايامه على احياء اللغة العبرية وتوحيد استعمالها لانه على حد تعبيره « ... لن يكتب البقاء والاستمرار لاية امة دون وجود لغة مشتركة لديها .. » وانطلاقا من هذا الموقف قام بوضع كتاب لتدريس اللغة العبرية وقواعدها . وفي عام ١٨٧٤ هاجر القلعي الى القدس حيث بقي هناك حتى وفاته عام ١٨٧٨ .

★ ★ ★

يعتبر الحاخام تسفي كاليشر Zvi H. Kalischer (١٧٩٥ — ١٨٧٤) من اكثر المفكرين اليهود الذين تركت اراؤهم آثارا عميقة وواضحة في الفكر الصهيوني بالرغم من أن اهتماماته الصهيونية جاءت متأخرة نسبيا عن سابقه القلعي . نشأ كاليشر في احدى المقاطعات البولندية الغربية التي كانت خاضعة للسيطرة البروسية عام ١٧٩٣ (١٥) . وقد تلقى دراسة دينية

---

(١٣) Hertzberg, P. 107 والترجمة العربية ص ١٥

(١٤) ورد هذا في رسالة بعث بها بالمرستون لسفيره في الاستانة عام ١٨٤٠ يطلب منه فيها ممارسة نفوذه على السلطان العثماني ليقدم ضمانات حقيقية وملموسة بالنسبة لموضوع توطين اليهود في فلسطين . ومما ورد في هذه الرسالة قول بالمرستون : « ... سيكون من مصلحة السلطان العثماني السماح لليهود المشتتين في مختلف بلدان العالم التوجه الى فلسطين لاستيطانها ، اذ أن ما سيجلبونه من ثروات معهم بالاضافة الى انتظامهم ومثابرتهم على العمل سيؤدي الى زيادة موارد الامبراطورية العثمانية ويشجع التقدم والحضارة فيها . » انظر :
Franz Kobler, The Vision was there : A History of the British Movement for the Restoration of the Jews to Palestine (London : 1956); PP. 128 - 129.

(١٥) تعرضت بولندا للتقسيم ثلاث مرات بين جاراتها الثلاث روسيا وبروسيا والنمسا . تمت الاولى عام ١٧٧٢ والثانية عام ١٧٨٣ والثالثة عام ١٧٩٥ . وبمقتضى التقسيم الاخير اختفت بولندا عن خريطة العالم السياسية تماما ، وقد حصلت روسيا على نصيب الاسد في التقسيم بما في ذلك دوقية وارسو التي كان يقطنها اليهود باعداد كبيرة . وقد كان يسكن المقاطعات البولندية في مطلع القرن التاسع عشر حوالي ١٫٤ مليونا من اليهود أي ما يزيد على نصف يهود العالم في ذلك الوقت . لمزيد من التفاصيل انظر :
Siman Dubnow, History of the Jews in Russia and Poland (Philadelphia : 1946), 3 Vols.

تقليدية في المدارس اليهودية في مدينة بوزن Posn ثم انتقل منها الى مدينة ثورن Thorn حيث تولى حاخامية الطائفة اليهودية فيها طيلة اربعين عاما .

كانت المنطقة التي عاش فيها كاليشر مسرحا للافكار القومية والثورات التحررية التي كان يقوم بها الشعب البولندي بغية انقاذ بلاده من السيطرة الاجنبية واعادة بناء دولته الموحدة . ففي زمنه حدثت ثورتان عنيفتان في القسم الروسي من بولندة ، الاولى عام ١٨٣٠ — ١٨٣١ والثانية عام ١٨٦٣ وسيبدو اثر هذه الافكار والحركات القومية على آراء كاليشر لدى استعراض اهم معالم فكره الصهيوني .

باشر كاليشر نشاطه السياسي مع ظهور الحركة اليهودية الاصلاحية (١٦) Reform Judaism حيث رفض دعوتها الرامية الى التخلي عن التقاليد اليهودية المتوارثة وحق اليهود في « العودة » الى فلسطين . ففي الوقت الذي كان فيه الاصلاحيون يفسرون مفهوم « العودة » على انه عودة اليهودي الى تبني القيم الاخلاقية والاندماج في المجتمع الذي يعيش فيه ، نجد كاليشر يشدد على ضرورة ارتباط اليهودي بارض فلسطين ويدعو الى الاستيلاء عليها بالقوة اذا اقتضى الامر ذلك .

ان خلاص اليهود في راى كاليشر لا يمكن ان يتم الا بعودة اليهود اولا الى فلسطين وهذه العودة لا بد وان تسبق مجيء المسيح المنتظر ، وكلما

---

(١٦) الحركة اليهودية الاصلاحية ثمرة من ثمار حركة الاستنارة اليهودية التي قادها موزس مندلسون . وقد دعت هذه الحركة منذ تأسيسها الى القيام بتعديلات اساسية في العقيده اليهودية وفي مقدمتها التخلي عن جميع الطقوس المرتبطة بالدولة والهيكل والتي لم يعد لها — على حد تعبير اعضاء الحركة — اي مبرر لاستمرارها . ونادى الاصلاحيون باعادة تفسير اليهودية على أساس عقلاني وبمنظار علمي يتم من خلاله التركيز على الجانب الاخلاقي للتلمود واهمال قسم كبير من المحرمات التي نصت عليها الشريعة الموسوية كالقوانين الخاصة بالطعام وغيرها . كما دعا الاصلاحيون الى التخلي عن فكرة « الشعب المختار » مؤكدين على أن النفي والتشتت اليهوديين يجب أن يكونا حافزين لنشر اليهود للمثل الاخلاقية بين الامم وبالتالي التقرب من الاخرين وليس الانعزال عنهم . كما نبذ الاصلاحيون فكرة « العودة » الى فلسطين وانشاء « دولة يهودية » فيها . وقد ادى ذلك الى قيام علاقة عداء بين الاصلاحيين والصهاينة غير أن هذه العلاقة العدائية لم تستمر طويلا . فبعد قيام « الدولة اليهودية » بدأ الاصلاحيون يتقربون من الصهاينة ويعملون على تغيير مبادئهم المعادية لهم بالتدريج . وفي عام ١٩٦٨ عقد الاصلاحيون مؤتمرهم الخامس عشر في مدينة القدس حيث اعترفوا بدولة « اسرائيل » وبحدودها الجديدة التي توسعت اليها في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ . لمزيد من التفاصيل انظر : المسيري ص ٤٥٢—٤٥٤ وانظر ايضا :

David Philipson, The Reform Movement in Judaism (N.Y. : 1907)

تأخرت العودة كلما تأخر مجيئه وبالتالي تأخر الخلاص اليهودي . وقد انتقد كاليشر صراحة المفهوم الديني الذي كان سائدا بين غالبية الفقراء اليهود بان المسيح المنقذ سيظهر لتخليص اليهود من « محنتهم » طالما حافظوا على تأدية صلواتهم واقامة الطقوس الدينية المفروضة عليهم . ان مجيء المسيح وخلاص اليهود ـــ كما أوضح كاليشر ـــ رهن بتجميع انفسهم في « أرض اسرائيل » والعمل بمنتهى الجدية والاخلاص في تطهير أرضها من مختلف الشوائب التي علقت بها عبر القرون الماضية . ومماقاله في هذا المجال « عزيزي القارىء ! الق جانبا الفكرة التقليدية القائلة بان المسيح سينفخ بالبوق العظيم فترتعد منه كل الارض . ان الخلاص لن يبدأ الا بمساندة المحسنين وبكسب موافقة الامم على لم شمل بعض الاسرائيليين في الارض المقدسة » (١٧) ويلاحظ هنا حرص كاليشر على تأمين « موافقة الامم » لهجرة اليهود الى فلسطين وهي تعني بعبارة اخرى تأمين حماية وتأييد القوى الامبريالية الكبرى التي تصبح موافقتها أمرا اساسيا في هذا المجال . كما يلاحظ ايضا تكرار تعبير « لم شمل بعض الاسرائيليين » وهذا يشير الى ادراك كاليشر لضرورة استثناء مجموعات يهودية من الهجرة الى فلسطين لتظل مصدر تموين ودعم للكيان اليهودي ، والمقصود بهذه المجموعات بالطبع الفئات البرجوازية اليهودية التي كان بمقدورها توفير التموين والدعم اللازمين .

وكعادة غالبية رواد الفكر الصهيوني حين كانوا يبدأون نشاطهم العملي بالكتابة الى ثري يهودي أو زعيم امبريالي ، فان كاليشر قام عام ١٨٣٦ بتوجيه رسالة الى مير روتشيلد Meyer Rothschild ، رئيس فرع اسرته في برلين ، مقترحا عليه أن تقوم اسرته بشراء فلسطين من حاكمها محمد علي ، في ذلك الوقت ، لاقامة مستوطنات للمهاجرين اليهود من اوروبا الشرقية . ومما ورد في هذه الرسالة قول كاليشر « ... أن بداية الخلاص سوف تأتي عن طريق اسباب طبيعية نتيجة للجهد الانساني وعن طريق ارادة الحكومات لجمع شمل اسرائيل المبعثرة في الاراضي المقدسة » . (١٨) ولكن كاليشر لم يحظ بأى رد على رسالته . ويمكن تفسير عدم استجابة آل روتشيلد في برلين لطلب كاليشر بسبب عدم وجود مصالح استعمارية لالمانيا في المنطقة آنذاك ، فهي كانت لا تزال تعاني من التجزئة السياسية التي لم تنته الا بقيام الاتحاد الالماني عام ١٨٧١ على يد بسمارك وهذا بالطبع ان دل على شيء فانما يدل على أن البرجوازية اليهودية لا تقدم على اية مغامرة سياسية

---

(١٧) Hertzberg, P. 111 الترجمة العربية ص ١٤

(١٨) المصدر السابق ص ١٠٩ .

أو اقتصادية ما لم تكن واثقة من دعم الدولة التي تعيش في كنفها لمثل هذه المغـــامرة .

توجه كاليشر بعد ذلك صوب بريطانيا حيث دعـــا زعماء البرجوازية اليهودية فيها لبذل المزيد من الدعم لتوطين اليهود في فلسطين مقابل قيامه هو وزملاؤه من الزعماء الدينيين للطوائف اليهودية بممارسة الضغوط للتأثير على فقراء اليهود في وسط وشرق اوروبا لتشجيعهم على الهجرة الى « ارض الميعـــاد » .

وفي عام ١٨٦٢ نشر كاليشر كتابه « البحث عن صهيون Derishat Zion حيث افرد الجزء الاكبر منه للحديث عن قدسيـــة العمل اليدوي واهمية الاستيطان الزراعي في فلسطين . وكان لهذه الافكار اكبر الاثر على جماعة احباء صهيون فيما بعد . وقد وصف كاليشر في كتابه حالة اليهود في اوروبا الشرقية وصفا مأساويا يمثل منتهى البؤس والشقاء والتعاسة ، غير انه اعتبر ذلك امتحانا للايمان وبداية لحدوث الخلاص الطبيعي عن طريق التطوع للذهاب الى فلسطين بقصد الاستيطان والاقامة الدائمة فيها . وقد اشـــار الى ذلك بقوله « ... نعلم جميعا أن طريقة عبادتنا الله تتم بتجارب يمتحننا الله بها . فعندما خلق الله الانسان زرع بجانبه شجرة المعرفة وامره بالا يتذوقها . فلماذا وضع الله شجرة في الفردوس اذا لم تكن للتجربة ؟ ولماذا سمح الله للافعى أن تدخل الفردوس وتختبر الانسان لو لم يقصد الله تجربـــة الانسان ؟ وعندما غادرت اسرائيل بلاد مصر امتحنها الله بالجوع والعطش ... منذ أن تشتتنا ونحن نستشهد في سبيل الله . لقد شردنا من ارض الى ارض وتحملنا نير النفي عبر العصور من أجل اختبار ايماننا » (١٩) . وفي معرض حديثه عن الخلاص الطبيعي قال : « ... عندما يتطوع يهود كثيرون ورعون للذهاب الى ارض فلسطين والسكن في القدس بدافع الرغبة للخدمة ولروح الطهارة والقدسية ، وحينما يذهب هؤلاء افرادا وازواجا من اطـــراف الدنيا الاربعة ويستقرون هناك وتتزايد صلواتهم على جبال القدس ـــ عند هذا فقط يسمح الله لهم ويسرع في يوم خلاصهم » . (٢٠)

لقد تعرض كاليشر لمعارضة قوية في اوساط المتدينين المحافظين الذين كانوا يرون أن العمل على اقامة دولة يهودية قبل مجيء المسيح المنتظر يعتبر كفرا ، فاقامة مثل هذه الدولة وتجميع اليهود فيها يمثلان نوعا من « الضغط » على المسيح المخلص و « اجباره » على الظهور قبل الاوان الذي حدد له ،

---

(١٩) المصـــدر السابـــق ص ١١١

(٢٠) المصـــدر السابـــق ص ١١٢

وبالتالي « الاسراع في نهاية العالم » (٢١) . غير أن كاليشر شن حملة شعواء على معارضيه مصرا على أن العمل في الفلاحة والزراعة هو السبيل الدنيوي والحافز الاول للوصول الى الخلاص المرتقب والاخير . وكان مما قاله في هذا الصدد : « .. سيؤدي العمل الزراعي اليهودي للوصول الى الخلاص ... الخلاص الذي وعد به المسيح المنتظر . واذا ما قدمنا الجهد للارض بهذه الطريقة الدنيوية ، فستظهر لنا علامات الخلاص تدريجيا .. هذه السياسة ايضا ستعمل على كسب احترام الامم الاخرى اذ انهم سيقولون ان بني اسرائيل لديهم الارادة أن ينقذوا ارض اجدادهم التي اصبحت مهملة وقاحلة » . (٢٢) ولعل في تركيز كاليشر على العمل الزراعي اليدوي محاولة منه للتخلص من الوصمة التي الحقت باليهود في اوروبا بانهم ليسوا « امة » نظرا لانهم دأبوا على الابتعاد عن العمل اليدوي وبالتالي فانهم لا يدركون معنى الارض وقيمة الارتباط بها .

وكان من ضمن الاراء التي تضمنها كتابه دعوته الى عقد مؤتمر عام لزعماء اليهود واثريائهم بهدف تأسيس « جمعية استيطان ارض اسرائيل » تكون مهمتها « تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين عن طريق شراء الاراضي وبناء المستوطنات » (٢٣) وقد رفع كاليشر شعار « القومية اليهودية » في محاولة منه لاقناع اليهود بالهجرة الى فلسطين لبناء « الدولة القومية اليهودية » . ومما قاله بهذا الشأن : « لماذا يضحي شعب ايطاليا وشعوب اقطار اخرى بحياتهم من اجل ارض آبائهم ، بينما نحن نتصرف كرجال حرموا من القوة والشجاعة لا نفعل شيئا ؟ هل نحن اقل شأنا من جميع الشعوب الاخرى التي لا تعير اهتماما للحياة والمال بالمقارنة مع حبها لارضها وامتها ؟ يجب علينا أن نخجل من انفسنا لاننا لا نعمل على احياء ذكرى آبائنا وتمجيد الهنا الذي اختار صهيون سكنا له .. » (٢٤)

---

(٢١) انظر جريس ص ٧٥ ، خشي هؤلاء المتدينون أن تكون دعوى كاليشر حركة مسيانية زائفة اخرى كباقي الحركات التي ظهرت خلال القرنين السابقين . ولذلك فقد عمل كاليشر على الاستعانة بالعديد من الصفحات المقتبسة من التلمود ومن اقوال من سبقه من ثقات حكماء اليهود بغية تأييد وجهة نظره . وفي النهاية اعلن رأيه بصراحة قائلا : « ان العقل والشريعة يلزمان كل يهودي بالعمل بمنتهى الشجاعة والقوة والتصميم من أجل الاستيطان اليهودي في ارض اسرائيل . انظر المصدر السابق .

(٢٢) المصدر السابق ص ١١٤ ، الترجمة العربية ص ١٧

(٢٣) المصدر السابق ص ١٠٩

(٢٤) المصدر السابق ص ١١٤ ، الترجمة العربية ص ١٧ .

ولم يكن نشاط كاليشر محصورا في نطاق الاراء والنظريات وانما تعدى ذلك ليشمل نشاطا عمليا في مجال الاستيطان . فقد ساهم عام ١٨٦٠ بالتعاون مع حاييم لوري Hayyim Luri في تأسيس جمعية استيطان يهودية في فرانكفورت واخرى في عام ١٨٦٤ في برلين باسم « جمعية استعمار ارض اسرائيل ». كما نجح كاليشر عام ١٨٦٦ في التأثير على مجموعة من اثرياء اليهود لشراء قطعة ارض قرب مدينة يافا اقام عليها الاتحاد الاسرائيلي العالمي (٢٥) Alliance Israelite Universelle عام ١٨٧٠ مدرسة زراعية اطلق عليها اسم « مدرسة مكفية اسرائيل الزراعية » Mikveh Israel Agricultural School واصبحت نواة اول مستوطنة زراعية يهودية في فلسطين (٢٦) . وقد اقترح كاليشر انشاء جماعات حراسة تجمع بين العمل الزراعي والعسكري لحماية المستوطنات اليهودية من اى خطر يتهددها ، خاصة من جانب السكان المحليين (وهم بالطبع العرب) الذين وصفهم « باللصوص » ودعا الى استعمال السلاح « دفاعا » عن المستوطنات حتى لو اقتضى ذلك ارسال فرق يهودية مسلحة الى ملاحقة « اللصوص العرب » في العمق العربي خارج حدود فلسطين . والغريب أن نفس هذا المنطق لا تزال تستعمله « اسرائيل » في تبرير توسعها الاستيطاني وذلك بشن ما يسمى « الحروب الوقائية » في العمق العربي بحجة القضاء على « المخربين العرب » الذين هم في الحقيقة السكان الاصليون الذين شردوا من اراضيهم .

وهكذا تتضح في اراء كاليشر جميع مظاهر ايديولوجية العمل الصهيوني من تحالف مع القوى الامبريالية واعتماد على البرجوازية اليهودية لتوفير الحماية اللازمة للوجود الصهيوني في فلسطين بالاضافة الى تفريغ البلاد من

---

(٢٥) تأسس الاتحاد في باريس عام ١٨٦٠ . وقد كان لال روتشيلد في فرنسا دور بارز في توجيه سياسات الاتحاد نحو خدمة المصالح الامبريالية الفرنسية في منطقة الشرق العربي زمن امبراطورية نابليون الثالث . وكان الهدف الذي انشىء الاتحاد من اجله هو الدفاع عن « الحريات المدنية والدينية لليهود وتنمية المجتمعات اليهودية المختلفة عن طريق التعليم والتدريب واغاثة اليهود زمن الازمات » . ورغم عدم تبني الاتحاد رسميا للنهج الصهيوني ، الا انه ساعد في تحقيق الكثير من اهدافه السياسية وذلك بشراء الاراضي في فلسطين والاسهام في انشاء المستوطنات الزراعية عليها وجلب المهاجرين اليهود من دول اوروبا الشرقية كي يعيشوا ويستقروا فيها . انظر المسيري ص ٨٥٨ .

(٢٦) اشرف على تأسيسها كارل نيطر Karl Netter احد مؤسسي الاتحاد وقد ساهمت المدرسة فيما بعد في دعم الاستيطان الصهيوني في مناطق اخرى من فلسطين انظر :
ESCO Foundation, Palestine : A Study of Jewish, Arab, and British Policies (New York : 1970), P. 9

سكانها الاصليين بحجة « الدفاع عن النفس » واتاحة الفرصة « للشعب اليهودي المتمدن » صاحب « الرسالة الحضارية » ، أن يستقر في هذه المنطقة ، « الموحشة المتخلفة » . لقد صور كاليشر هذه المنطقة كما صورها القلعي من قبل ، بانها ارض خربة مقفرة وان العناية الالهية اختارت اليهود ليقوموا « بزراعتها وتحسينها ونقل الحضارة اليها » ... (٢٧) انه نفس المنطق الامبريالي الذي استعمل لتبرير احتلال واستعمار اراضي الغير سواء كان ذلك في روديسيا أو جنوب افريقيا أو فلسطين .. نفس الاحتلال ونفس المنطـــق !

يعتبر القلعي وكاليشر رائدي الصهيونية الدينية التي نجحت في طرح المفاهيم الصهيونية السياسية الاستيطانية بمفردات دينية بغية استقطاب تأييد ودعم الجماهير اليهودية الفقيرة المتدينة والمتركزة في روسيا وشرق اوروبا ، لمثل هذه المفاهيم . ولذلك فلا عجب اذا وجدنا يهود روسيا يشكلون المـــادة البشرية الفعالة لعملية الاستيطان اليهودي في فلسطين . لقد استوعبت هذه الفئات اليهودية فكرة « العودة » الى فلسطين على انها جزء من الفرائض الدينية لا سيما أن تعاليم القلعي وكاليشر كانت تنص على أن عودة المسيـــح المنتظر لا تتحقق الا بهجرة اعداد كافية من اليهود الى فلسطين للعمل في ارضها وبناء المستوطنات الزراعية فيها . وسنرى في دراسة لاحقة كيف تركت هذه التعاليم آثارها الواضحة على جماعة احباء صهيون التي لعبت دورا بارزا في ازدياد حجم الهجرات اليهودية الى فلسطين في اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي . وقد كان لاراء القلعي وكاليشر ونشاطاتهما العملية بين فقراء اليهود اكبر الاثر في خدمة اهداف القوتين المتحالفتين الامبريالية الغربية والبرجوازية الصهيونية من اجل تهيئة السبل لارساء دعائم النهج الصهيوني الاستيطاني في فلسطين .

* ★ *

اما المفكر اليهودي الذي ترك انطباعا عميقا في الفكر الصهيوني فهو بلا شك موزس هس Moses Hess (١٨١٢ ــ ١٨٧٥) . نشأ هس (٢٨) نشأة دينية تقليدية مثل غالبية من سبقه من المفكرين اليهود . فقد حصل على

---

(٢٧) Hertzberg, P. 113 الترجمـــة العربيـــة ص ١٦ .

(٢٨) ولد هس في أسرة ثرية ، كان والده يهوديا ارثوذكسيا يعمل في التجارة . اما جده لامه فقد كان حاخاما جاء اصلا من بولندا وكان له تأثير كبير عليه في بدء حياته . تزوج مـــن امرأة مسيحية امية كانت تعمل في الدعارة ، ولم يعلن زواجه بها الا بعد مضي عام كامل على وفاة والده اي عام ١٨٥٢ وذلك ليضمن حقه في الوراثة .

قسط وافر من الثقافة التلمودية في مدينة بون بالمانيا ، ودرس اللغة العبرية على يدي جده الذي كان يعده ليصبح حاخاما لاحدى الطوائف اليهودية الالمانية . غير انه ما لبث حين بلوغه سن الرشد أن ابتعد عن التقاليد اليهودية الدينية وانكب على دراسة العهد الجديد والفلسفة والتاريخ والآداب الفرنسية والانجليزية ، وفي عام ١٨٣٥ التحق بجامعة بون حيث امضى معظم وقته في دراسة الفلسفة ونشأت علاقة وثيقة لفترة وجيزة بينه وبين كارل ماركس الذي كان طالبا في الجامعة آنذاك .

كان من جملة المفكرين الذين تأثر بهم هس الفيلسوف اليهودي بينيدكت سبينوزا (٢٩) Benedict Spinoza وقد تبنى الكثير من آرائه خاصة في كتابه الاول الذي اصدره هس بأسم مستعار (احد اتباع سبينوزا) وعنوانه **تاريخ الانسانية المقدس** The Sacred History of Mankind ويلاحظ في هذا الكتاب تمجيد هس للدين المسيحي واعتباره دين العصر الذي سيوحد بين الشعوب ، في حين أن الدين اليهودي يسعى فقط لتوحيد « شعب » واحد دون غيره من الشعوب . وفي مطالبته بتخلي اليهود عن « اسطورة شعب الله المختار » يتضح تأثر هس بفكرة سبينوزا القائلة بان الاله مرتبط بجميع شعو بالانسانية ، وشعب الله المختار هو هذه الشعوب جميعا حين تنبذ خلافاتها واحقادها وتتوحد شعبا انسانيا واحدا . وقد دعا هس اليهود الى الاندماج في الحياة الاوروبية الحديثة كي لا يظلوا تائهين في الدنيا « شعب اشباح » يتجول عبر القرون التاريخية « روحا بدون جسد » . (٣٠)

بدأ هس نشاطه السياسي عام ١٨٤٠ بانضمامه للحركة الاشتراكية الاوروبية حيث اخذ يتعاون مع ماركس وانجلز في تنظيم الحركات العمالية

---

(٢٩) فيلسوف هولندي عاش في الفترة ما بين عامي ١٦٣٢ — ١٦٧٧ . كان اجداده يعيشون في اسبانيا ويعتنقون اليهودية ثم ما لبثوا أن تنصروا ، غير انهم عادوا الى يهوديتهم اثر مجيئهم الى هولندا . تأثر سبينوزا بافكار الفيلسوف اليهودي العقلاني ابن ميمون الذي عاش في القرن الثاني عشر . انتهى المطاف به الى طرده من حظيرة الدين اليهودي نتيجة ثورته على اليهودية ورفضه فكرة الاله الواحد المرتبط بالشعب اليهودي واصر على أن الاله الحقيقي هو اله الانسانية عامة الذي يدعو الى التضامن والتآلف بين البشر . للمزيد من الاستيضاح : انظر : اسحق دوبتشر **دراسات في المسالة اليهودية** (ترجمة مصطفى الحسيني) (بيروت : ١٩٧١) ص ١٧—٣٤ .

(٣٠) Walter Laqueur, A History of Zionism (London : 1972), P. 47

بالمانيا ، غير انه ما لبث أن اختلف معهما بعد صدور البيان الشيوعي . (٣١) وقد غادر هس المانيا في اعقاب ثورة عام ١٨٤٨ بعد أن صدر عليه حكم الاعدام نتيجة اشتراكه بالثورة ، وامضى ما تبقى من حياته متنقلا بين دول اوروبا الغربية متخذا من فرنسا مركزا لاقامته .

وفي عام ١٨٦٢ اصدر هس كتابة المشهور باللغة الالمانية تحت عنوان **بعث اسرائيل** The Revival of Israel وما لبث الكتاب أن اصبح يعرف فيما بعد باسم **روما والقدس** Rome and Jerusalem . والغريب ان معظم ما تضمنه هذا الكتاب من آراء وافكار جاء مناقضا تماما لما كان ينادي به هس من قبل . وهذا ما جعل الكثير من اليهود يشككون بادىء الامر في مدي جدية ما طرحه عليهم منتفسيرات واجتهادات والهدف الذي كان يسعى لتحقيقه من وراء ذلك .

جاء الكتاب على شكل رسائل وملاحظات موجهة الى سيدة مجهولة فقدت انسانها الذي احبته وتسلل اليأس الى قلبها فجاء من يواسيها ويبعث الامل في حياتها . ويبدو أن هس كان يتخذ من هذه السيدة المجهولة رمزا « للشعب اليهودي » ومن ذلك الحبيب التائه رمزا « لارض الميعاد » وحصيلة هذه الرسائل والملاحظات كانت البحث في افضل السبل لاعادة الجمع بين السيدة وحبيبها او بتعبير آخر « اعادة » الصلة بين اليهود وفلسطين . ولقد تضمنت هذه المعادلة الاستعمارية التي وردت على شكل صورة رومانسية ، اهم اسس العقيدة الصهيونية والكثير من الافكار التي تبنتها فيما بعد المنظمة الصهيونية العالمية .

استهل هس كتابه بقوله « ... كانت غربة طويلة استمرت ما يزيد على العشرين عاما ... وعدت بعدها الى شعبي واهلي لاشارك من جديد في افراحهم واحزانهم آمالهم وذكرياتهم .. تلك المشاعر التي خلت نفسي قد نجحت في كبتها عبر السنين الطويلة ، بعثت الى الحياة من جديد .. انها المشاعر المستمدة من قوميتي التي ترتبط بتراث اجدادي وبالارض المقدسة الخالدة .. والقدس » . (٣٢)

---

(٣١) عارض هس فكرة حتمية الصراع الطبقي حيث انه اعتبر العالم مكونا من عناصر واعراق بشرية وليس بالضرورة من طبقات . واذا كان لا بد من صراع فالصراع يتم عادة بين العناصر ، والعنصر المتفوق هو الذي يكسب الجولة . وبالطبع فان هس اعتبر العنصر اليهودي في مقدمة العناصر البشرية تفوقا وذكاء وانه العنصر الوحيد الذي تقع عليه مسئولية انقاذ العالم من البؤس والكوارث . انه بلا شك منطق ابعد ما يكون عن المنطق الاشتراكي واترب ما يكون الى المنطق القومي السوفيتي المتعصب .

(٣٢) Moses Hess, Rome and Jerusalem (New York : 1945), P. 3

وانتقل هس بعد ذلك فتحدث عن الاسباب التي جعلته يتخلى عن غربته ويعود الى « شعبه » فاشار الى أن مبعث ذلك ازدياد حدة « المعانـــاة اليهودية »نتيجة اشتداد النزعة اللاسلامية في المانيا . واللاسامية الالمانية ــ في راى هس ــ كانت تعكس كراهية الالمان لا لليهودية كدين فقط وانما لليهود « كعنصر أو « كعرق » ايضا ، وبالتالي فان المحاولات التي كانت تقوم بها بعض الفئات اليهودية للاندماج في المجتمع الالماني اعتبرها هس محاولات عقيمة وعديمة الجدوى لن تنقذ اليهود من « معاناتهم » . ومما قاله بهذا الصدد « .. حتى تخلي اليهودي عن دينه لن يخفف من وطأة الضغط الهائل الواقع عليه من جراء اللاسامية الالمانية . ان كراهية الالمان للعرق اليهودي هي الاساس .. ولذلك فليس باستطاعة الاصلاح أو التنصر أو الثقافة أو التحرر أن تفتح ابواب المجتمع الالماني لليهود حتى لو تنكروا لعرقهم .. سيظلون دائما غرباء .. ان الانوف اليهودية لا يمكن تغييرها ، كما أن الشعر الاسود المجعد لا يمكن تحويله الى شعر اشقر املس . (٣٣) وانتقل هس بعد ذلك ليقول : « .. من الممكن أن تتحرك المشاعر الانسانية لدى بعض الشعوب الاوروبية فتحررنا ولكنها لن تحترمنا طالما ظل مبدؤنا هو أن موطن المرء حيث ينتفع » . وتوصل في النهاية الى أن لب المشكلة اليهودية هو « اللامأوى » اي عدم وجود وطن لليهود كباقي الشعوب الاخرى ، ولذلك فان استمرار اليهود بدون ارض سيدفع بهم في النهاية الى مستوى الطفيليات التي تعتمد فـــي قوتها على الاخرين . (٣٤)

ويلاحظ أن معظم معاصري هس من المفكرين الاوروبيين الاشتراكيين كانوا يتحدثون عن معاناة مختلف الطبقات العاملة والفقيرة في شتى المجتمعات الاوروبية الراسمالية ، ولم يعيروا قضية اللاسامية اهتماما كبيرا ولم تشكل بالنسبة اليهم قضية مصيرية . ورأوا أن رفع الظلم عن كاهل جميع هـــذه الطبقات سواء كانت يهودية أم غيرها يتحقق عن طريق الاتيان بحكومـــات شعبية حقيقية ، اما التركيز على المعاناة التي تعرضت لها فئات فقيرة معينة لكونها يهودية دون الاهتمام بالفئات الفقيرة الاخرى غير اليهودية فهذا فـــي حد ذاته تشجيع غير مباشر للنزعة اللاسامية وتعميق لجذورها في المجتمعات الاوروبية .

اما الحل الذي اقترحه هس لمعاناة فقراء اليهود أو ما سمي « بالمسألة اليهودية » فكان العمل على تهجير هذه الفئات خارج اوروبا صوب فلسطين ،

---

(٣٢) Hess, PP. 52—53.

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢

أو بتعبير اخر تبنى المشروع الصهيوني الذي شجعته البرجوازية اليهودية التي كانت تسعى للتخلص من عبء المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن سوء اوضاع الفئات اليهودية الفقيرة التي كانت تفد الى دول اوروبا الغربية من روسيا وباقي اجزاء اوروبا الشرقية . كما أن نجاح تطبيق هذا الحل بانشاء كيان يهودي سياسي في فلسطين تحت حماية احدى الدول الاوروبية الكبرى يهيء المجال لوجود مستوطنين عملاء لتلك الدولة الكبرى يتفانون في خدمة مصالحها الاستعمارية ويدراون عنها اية اخطار تحدق بها . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا الحل الذي كان يتفق ومصالح الامبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية ، تتوفر فيه امكانية القضاء على مبررات وجود النزعة اللاسامية التي كان من الممكن — على حد تعبير هس — أن تؤثر على مصالح الفئات البرجوازية اليهودية ، ومما اورده هس حول هذا الموضوع قوله : « ... ان الامم المسيحية لن تعارض اطلاقا انشاء وطن لليهود في فلسطين طالما أن ذلك يضمن لها التخلص من شعب غريب شاذ يسبب لها مشاكل كثيرة » . (٣٥)

ومن اجل اثارة اهتمام وحماس الفئات اليهودية الفقيرة للمشروع الصهيوني لجأ هس الى استغلال اسلحة البرجوازية الاستعمارية التي كانت سائدة في ذلك العصر . (٣٦) وكان من اهم تلك الاسلحة : القومية الشوفينيه المتعصبة واسطورة الجنس النقي والرسالة الحضارية التمدينية . بالنسبة لاستعمال سلاح « القومية اليهودية » فان هس تصور انه يمكن بواسطته التخلص من اي صراع أو « سوء فهم » قد يحدث بين الفئات اليهودية الفقيرة وتلك الفئات اليهودية البرجوازية وذلك بما توفره الرابطة القومية من ارضية مشتركة لهذه الفئات بحيث تفتح امامها آفاق التعاون المشترك ، وقد عبر هس عن ذلك بقوله : ستجتمع الطبقات اليهودية جميعها على الارض المشتركة للقومية اليهودية سواء التقليدية منها أم التقدمية الغنية ام الفقيرة . » وبقوله ايضا :« .. ان تعميق مفهوم الارض القومية المشتركة يوفر الركيزة الاساسية لاقامة علاقات افضل واكثر تقدمية بين الاغنياء والفقراء من اليهود » . (٣٧) وقد استغل هس المعتقدات الدينية خاصة بين يهود اوروبا الشرقية ، لحثهم على الهجرة الى فلسطين واعتبار ذلك بمثابة فريضة دينية ، تماما كما فعل كاليشر حين اكد أن لا مجيء للمسيح المنتظر ما لم يبدأ اليهود مسيرة « العودة »

---

(٣٥) نفس المصدر ص ١٤٢

(٣٦) العظم ، ص ٨٥—٩٦ .

(٣٧) Hess, P. 145

الى فلسطين « لتحريرها » بأية وسيلة ممكنة والاعداد لمجيء المسيح (٣٨) . وتساءل هس لم لا يكون لليهود الحق في « تحرير وطنهم » كباقي الشعوب الاوروبية ، وساق تجربة الشعب الايطالي مثالا على ذلك ، ودعا الى اتخاذ هذه التجربة التحررية الوحدوية نموذجا لليهود كي يحتذوا بها (٣٩) .

اما بالنسبة للعنصرية فان هس اعتبر العالم مكونا من عناصر واعراق بشرية ، كل عنصر أو عرق يتميز عن الاخر بخصائص عقلية وفسيولوجية لا تتغير بتغير الظروف البيئية والتاريخية وهذه الاعراق مرتبة ترتيبا تصاعديا حسب افضليتها وذلك في ضوء محافظة كل عرق منها على نقاوته وذكائه وتفوقه . وقد اشار هس الى ذلك بقوله « يعتبر العرق اليهودي من اوائل الاعراق البشرية ، وقد حافظ على نقاوته عبر العصور رغم المتغيرات البيئية والتاريخية التي مرت عليه .. » (٤٠) ولعل هس باستعماله هذه النظرية كان ينشد غرس ثقة اليهود بانفسهم عن طريق اقناعهم « بنقاوة عنصرهم » و « تفوقهم على العناصر البشرية الاخرى » .

وانتقل هس بعد ذلك ليتحدث عن الرسالة الحضارية « للشعب اليهودي » لتمدين وتثقيف شعوب آسيا وافريقيا « المتخلفة » . واعتبر هذا « الشعب » بمثابة « شمس الشعوب » الذي انيطت به مهمة انقاذ العالم وارشاده الى طريق « الخير » و « السلام » .

كما أن « المدينة الخالدة .. القدس » ستصبح مركز الاشعاع الحضاري بالنسبة للعالم حيث ستدور في فلكها جميع المدن الاخرى في مشارق الارض

---

(٣٨) Isidore Epstein, Judaism (London : 1975) P, 306.

(٣٩) من الواضح أن هس كان متأثرا بالتجربة الايطالية الى الحد الذي اختار عنوان كتابه **روما والقدس** من وحي هذه التجربة ، ويبدو انه كان معجبا بشخصية مازيني الذي كان يحث اليهود باستمرار على انشاء « وطن قومي » لهم . ومما قاله مازيني في هذا المجال « .. بدون وطن تبقون بلا اسم ، بلا علامة مميزة ، بلا صوت ولا حقوق ، . . ايها الاسرائيليون .. لا تخدعوا انفسكم بامل التحرر من ظروف اجتماعية مجحفة ما لم تنشئوا اولا وطنا لانفسكم ، لانه حيث لا يوجد وطن لا يوجد اجماع على رأي يمكنكم اللجوء اليه .. » نقلا عن صادق جلال العظم ، **دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية** (بيروت : ١٩٧٠) ، نص ٩٢—٩٣ .

(٤٠) Hess, PP. 228 - 229

ومغاربها . (٤١) ولا شك أن هذا المفهوم يحمل في طياته منطقا استعماريا طالما استعملته الدول الاوروبية الكبرى في تبرير حركاتها الاستعمارية وتسلطها على الشعوب الاخرى خارج القارة الاوروبية . وقد تبنت « الدولة الصهيونية » فيما بعد هذا المفهوم لتبرير توسعها المستمر على حساب الدول العربية المجاورة .

وانطلاقا من هذه المفاهيم ، اخذ هس يهاجم المحاولات التي قام بها الاصلاحيون والمسكيليم اتباع موزس مندلسون (٤٢) من « اليهود العصريين » للاندماج في المجتمعات الاوروبية ، واتهمهم بالتخلي عن القيم اليهودية والالتحاق بخدمة الدول الاوروبية بواسطة « ابراز شهادة التنصر كدبلوم لهم » (٤٣) ورفض هس الحجج التي استعملتها هذه الفئات بانها تستطيع عن طريق الاندماج أن تقدم خدمات جلى لليهودية وذلك « بتعليم المسيحيين غير المتسامحين مبدأ التسامح الديني واعادة الاتصال بين الحياة والاخلاقيات بعد أن افتقد العالم المسيحي مثل هذا الاتصال » (٤٤) . واشار الى أن تحقيق هذا الهدف لا يمكن أن يتم الا عن طريق بناء « الامة اليهودية » ضمن اطار دولتها ، وعندها يسهل التبشير بالمفاهيم الاخلاقية وتطبيقها في العالم المسيحي وغيره .

---

(٤١) كان هس على ما يبدو متأثرا « بنظرية روما الثالثة » التي كانت سائدة في روسيا القيصرية خلال القرنين السابقين لعصره . وكان مضمون هذه النظرية يدعو الى أن تكون موسكو خليفة روما الاولى الحقيقية وروما الثانية (القسطنطينية) . ففي اعقاب سقوط هاتين المدينتين اصبحت موسكو المؤهلة الوحيدة لتتخذ اسم روما الثالثة ، وبالتالي فلها الحق ان تصبح مركز العالم وبؤرة الحضارات وعليها مسئولية بسط نفوذها وسيطرتها على مدن العالم . وقد شكلت هذه النظرية احد العوامل الاساسية التي استعملها الروس لتبرير توسعهم المستمر في تلك الفترة ، وبالطبع فقد كان هنالك عوامل اخرى اساسية من بينها الوصول الى المياه الدفيئة وتحرير الشعوب السلافية وضمها .

(٤٢) المسكيليم كلمة عبرية تعني دعاة حركة الاستنارة اليهودية ومفردها مسكيل . ومعظم دعاة هذه الحركة من تلامذة موزس مندلسون (١٧٢٩ — ١٧٨٦) . ويعتبر مندلسون من دعاة الاندماج اليهودي في الحضارة الغربية . وقد تام بترجمة العهد القديم الى الالمانية بالاضافة الى قيامه بترجمة المؤلفات الالمانية الى العبرية وذلك كله بهدف بناء جسور ثقافية بين اليهود والالمان للتهيئة لعملية الاندماج بينهما ، وقد طالب بالقضاء على الجيتو العقلي الذي فرضه اليهود حول انفسهم مما ادى الى عزلهم عن المجتمعات الانسانية الاخرى .

(٤٣) Laqueur, P. 50

(٤٤) Hess, P. 145

اما بالنسبة لتأسيس « الدولة اليهودية » فقد نادى هس بتحقيق ذلك من خلال تحالف صهيوني فرنسي . ولعل اختياره لفرنسا يعود الى نفوذها القوي آنذاك في منطقة المشرق العربي . فقد حصلت عام ١٨٥٤ على امتياز شق قناة السويس في مصر بالاضافة الى نفوذها المتزايد في بلاد الشام من خلال الطائفة المارونية التي تدخلت القوات الفرنسية لحمايتها خلال فتنة عام ١٨٦٠ في المنطقة . ولذلك فقد كانت فرنسا اكثر دولة اوروبية مهيأة للمساهمة بشكل فعال في توطين اليهود في فلسطين لا سيما انها كانت تسعى للسيطرة على القسم الاكبر من تجارة الشرق والمواقع الاستراتيجية الواقعة على طريقها . (٤٥) وقد تحدث هس عن ذلك بقوله : « ... بعد أن ينتهي العمل في شق قناة السويس فان مقتضيات التجارة العالمية تتطلب اقامة المستودعات والمستوطنات على طول الطريق التجاري الممتد عبر المشرق العربي شرقا باتجاه الهند والصين بحيث تتمكن هذه المستوطنات من القضاء على حالة الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد الواقعة على هذا الطريق وتحولها الى دول متحضرة تؤمن بشرعية القانون . ولن يتم ذلك الا في ظل حماية عسكرية من جانب الدول الاوروبية وبالذات فرنسا التي كانت دبلوماسيتها الحكيمة تخطط على الدوام لضم الشرق الى الاقاليم الحضارية .. » (٤٦) وانتقل هس بعد ذلك ليعبر عن مدى الفائدة التي تعود على فرنسا من وراء انشاء دولة يهودية في فلسطين ، ومما قاله في هذا الصدد « ... من مصلحة فرنسا أن يستوطن الطريق التجاري المؤدي الى الهند والصين شعب موال تماما لمصالحها الاقتصادية والحضارية ، حتى يتسنى لها تحقيق الرسالة الانسانية التي ارست معالمها الثورة الفرنسية الكبرى » .. ويتساءل هس فيما اذا كان هنالك شعب تتوفر فيه هذه الخصائص « اكثر من شعب اسرائيل لتنفيذ تلك الرسالة المشابهة للرسالة الحضارية التي تحملها هذا الشعب نفسه منذ فجر التاريخ ؟ » (٤٧)

ويبدو أن السياسة الفرنسية في ذلك الوقت كانت تسعى الى احكام سيطرتها على المشرق العربي من خلال محاور ثلاثة : المحور الاول كانت تمثله القوة المارونية في لبنان والمحور الثاني كانت تمثله المحاولات الفرنسية التي قام بها فرديناند دلسبس لاقناع حكام مصر بمنح فرنسا حق توطين المناطق المحيطة بقناة السويس بمستوطنين اوروبيين يوفرون الحماية اللازمة لهذا

---

(٤٥) انظر Leonard Stein, The Balfour Declaration (London : 1961) P. 11

(٤٦) Hess, PP. 228 - 229.

(٤٧) نفس المصدر ، ص ١٤٨—١٤٩ .

المرفق الحيوي . اما المحور الثالث فكان المفروض أن تمثله القوة الاستيطانية اليهودية في فلسطين . غير ان سياسة المحاور الفرنسية هذه لم تنجح نظرا لانحسار النفوذ الفرنسي عن المنطقة في اعقاب هزيمة فرنسا المنكرة على يد القائد الالماني بسمارك في موقعة سيذان عام ١٨٧٠ .

كان هس معجبا « بالدور الفرنسي الحضاري » خلال فتنة الستين واستعرض باطراء ما كانت تقوم به فرنسا في المشرق العربي « للنهوض بالمستوى الثقافي والاقتصادي » لسكان هذه المنطقة . وبين اهمية مشروع شق قناة السويس وبناء خط سكة حديد بين اوروبا وآسيا عبر المشرق العربي ومنتهيا بالهند والصين ، وركز على الدور الحيوي الذي يمكن أن يلعبه المستوطنون اليهود في تقديم المساعدة والعون لفرنسا لانجاز هذه المشاريع الضخمة وتوفير الحماية اللازمة لها . وقد وجه نداء الى اليهود دعاهم فيه الى الانضواء تحت الراية الفرنسية ، وكان مما ورد في ذلك النداء : « ... ان بلاد اجدادنا الضائعة سيعاد اكتشافها على الطريق المؤدي الى الهند والصين والتي يجري بناؤها واعدادها في هذه المرحلة . فهل ما زلتم تشكون في أن فرنسا ستهب لمساعدة اليهود على تأسيس مستعمرات قد تمتد من السويس الى القدس ومن ضفاف الاردن الى شاطىء البحر المتوسط ؟ ان كان لا يزال عندكم شك في هذا فعليكم قراءة كتاب **(المسألة الشرقية الجديدة)** الذي الفه ايرنست لاهران » (٤٨)

والجدير بالذكر أن ايرنست لاهران (٤٩) Ernest Laharanne كان يعمل سكرتيرا خاصا لنابليون الثالث حينما الف كتابه عام ١٨٦٠ ابان التدخل الفرنسي في فتنة الستين . ويمكن تلخيص الافكار الرئيسية التي طرحها لاهران في كتابه بما يلي :

١ ــ الدعوة لعقد مؤتمر صهيوني عام يعمل على ارساء دعائم تنظيم يهودي متين ويضع الخطوات العملية لتحقيق الاستيطان اليهودي في فلسطين . ودعا الى تمويل عملية الاستيطان « بجهود رجال المصارف اليهود في العالم أو باكتتاب مالي عام يساهم به جميع اليهود » . (٥٠)

---

(٤٨) نفس المصدر ، ص ١٣٢ .

(٤٩) كان لاهران على صلة وثيقة بالفيلسوف الفرنسي اليهودي الاصل جوزيف سلفادور Joseph Salvadore الذي دعا الى اقامة دولة يهودية على « شواطىء طبرية وكنعان » . وقد كان سلفادور يقول بان هنالك عنصرين بشريين فقط في الشرق الادنى بمقدورهما المساهمة في الحضارة الانسانية وهما اليونان واليهود . انظر : Laqueur, P. 257.

(٥٠) نقلا عن Hess, P. 133

٢ ــ مبادرة الدول الاوروبية الكبرى وخاصة فرنسا لممارسة الضغوط على الدولة العثمانية كي تسمح لليهود بالهجرة والاستيطان في فلسطين استعدادا لانشاء دولة يهودية لهم فيها خلال مرحلة لاحقة . وقد تصور لاهران امكانية تحقيق هذه المهمة بسهولة نظرا لما قدمته الدول الاوروبية للدولة العثمانية من دعم مصيري في صراعها مع روسيا خلال حرب القرم .

٣ــ قيام اليهود بتقديم مبلغ من المال للدولة العثمانية مقابل شرائهم منها ارض فلسطين وقد عبر لاهران عن ذلك بقوله : « اى قوة في العالم ستعترض اذا قام اليهود باعطاء تركيا حفنة من الذهب لتنقذ بها وضعها الاقتصادي المتهاوي وقالوا لها : اعيدي لنا وطننا واستخدمي هذه الاموال للحد من تدهور امبراطوريتك » (٥١)

٤ ــ قيام المستوطنين اليهود بفتح طرق جديدة ومعابر للحضارة الاوروبية ، بحيث يصبحون مركز اتصال فعال بين القارات الثلاث . وقد وجه لاهران نداء لليهود يحثهم فيه على ان يكونوا حملة الحضارة الى الشعوب « الهمجية المتوحشة » وناشري العلوم الاوروبية « التي ساهم فيها اليهود كثيرا » بين اوساط هذه الشعوب . والغريب هنا ليس وصف العرب بالهمجية والوحشية فقط وانما انكار المساهمة العربية في ميادين العلوم الاوروبية وقصرها على اليهود . ولا شك أن هذا المنطق يعكس النظرة المتعصبة الحاقدة للامبريالية الغربية تجاه شعوب آسيا وافريقيا بحيث دابت على الانكار أو التقليل من اهمية اى دور ايجابي قامت به هذه الشعوب في مرحلة من مراحل تاريخها تجاه الحضارة الانسانية .

اشار هس في اكثر من موضع في كتابه الى قيمة المكاسب الاستثمارية التي كان بمقدور البرجوازية اليهودية الحصول عليها من خلال تبنيها لعملية الاستيطان اليهودي متحالفة في ذلك مع الامبريالية الفرنسية التي كانت تسعى للسيطرة على تجارة الشرق واقتصادياته ، وكان مما قاله حول هذا الموضوع : « من اجل تحقيق الاستيطان اليهودي في فلسطين على الطريق التجاري المؤدي الى شرق آسيا فان هنالك ضرورة لاستغلال رأس المال اليهودي تحت مظلة الدول الاوروبية (والفرنسية بشكل خاص) وذلك كي يتسنى لشجرة الحياة الجديدة أن تنمو في المنطقة ليتم الاستمتاع بثمارها

---

(٥٢) نفس المصدر ص ١٣٩

اليافعة ، وكي يتسنى ايضا انقاذ الاراضي الواسعة من خطر زحف الرمال الصحراوية عليها .. ومتى تحقق ذلك فان العالم المتمدن سينحني اجلالا وتقديرا لاصالة شعبنا العظيم .. » (٥٢)

وقد دعا هس الى انشاء « جمعية استيطان يهودية » على غـــرار الجمعية التي سبق ودعا اليها كاليشر ، وحدد مهمتها بجمع الاموال الكافيـة لشراء المناطق اللازمة لبناء المستوطنات عليها وتنظيم عملية جلب المستوطنين اليهود من كافة انحاء المعمورة وبشكل خاص من اوروبا الشرقية . وطالب هس بان يتولى الاشراف على هذه الجمعية نخبة من اثـــرياء اليهود امثال مونتفيوري وروتشيلد وفولد وغيرهم ، على أن يكون ما تشتريه الجمعية من ارض ملكا « للشعب اليهودي » باجمعه « لا يجوز نقل ملكيتها للافراد . اما بالنسبة لاستغلال الارض فيتم عن طريق تكوين جمعيات تعاونية تدعمها الدولة وتوفر لها كل ما تحتاجه من عون ومساعدة . (٥٣)

وهكذا يتضح من خلال هذا العرض ، لاهم آراء كل من القلعي وكاليشر وهس أن المصدر الحقيقي للفكرة الصهيونية كانت الراسمالية الاوروبية لا سيما في بريطانيا وفرنسا ، وان البرجوازية اليهودية قد تبنت ـــ في مرحلـة لاحقة ـــ هذه الفكرة ، بعد أن ادركت قيمة المكاسب التي يمكن أن تجنيها من وراء تنفيذها ، الامر الذي شرع يتحقق من خلال التحالف بـــين الامبريالية الغربية والبرجوازية اليهودية وذلك حين اخذ دعاة الفكرة الصهيونية من بين كوادر المفكرين اليهود ، ينشرون الفكرة ويدعون لها ، ويعرضون المشاريع المختلفة لها وبخاصة بين الفئات اليهودية الفقيرة ، وان ظلت حركاتهم مقيدة ـــ دائما ـــ بالاطر العامة التي حددتها لهم القوتان المتحالفتان : الامبرياليـة الغربية والبرجوازية اليهودية .

★ ❋ ★

(٥٣) Laqueur, P. 51.

صـــــدر عـــــن :

منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول

اســـــم المطبـــــوع	د.ك	دولار امريكي
ـ النفط والتنمية الاقتصادية العربية (بالانجليزية)	ـــر٢	ـــر٨
ـ النفط والتنمية العربية (بالعربية)	٥٠٠ر	ـــر٢
ـ اساسيات الصناعة البتروكيماوية (بالعربية)	ـــر٢	ـــر٨
ـ أساسيات صناعة النفط والغاز (٣ أجزاء) بالعـــــربية	ـــر	ـــر١٥
ـ مجالات التعاون بين اليابان والعالم العربي (بالعربية ، بالانجليزية ، باليابانية)	ـــر١	ـــر٣
ـ التقرير الاحصائي السنوي الخامس (بالعربية بالانجليزية)	ـــر٢	ـــر٨
ـ تطورات بدائل الطاقة (بالعربية)	ـــر١	ـــر٣
ـ النفط ومصادر الطاقة البديلة (بالعربية)	ـــر١	ـــر٣
ـ تطورات الطاقة (استهلاك ـــ سياسات ـــ مصادر)	ـــر٢	ـــر٢
ـ تقييم طرق الانتاج للبروتين النفطي (بالعربية)	٥٠٠ر	ـــر٢
ـ نشرة منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول (شهرية) بالعربية ، بالانجليزية ، الاشتراك السنوي	ـــر٤	ـــر١٦
ـ مجلة « النفط والتعاون العربي » فصلية بالعربية مع ملخصات بالانجليزية الاشتراك السنوي :		
للافـــــــراد	ـــر٣	ـــر١٢
للمؤسسات	ـــر١٠	ـــر٤٠

تطلب هذه المطبوعات من : منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول
ص.ب ٢٠٥٠١ ـــ الكويت .

The Genesis of the Colonialist Tendency in 19th Century Western Jewish Thought

A. Mahmoud

The purpose of this study is not merely to discuss the various aspects of the Western Jewish thought in the nineteenth century. The prime interest of this study is to investigate the profound influence that European imperialism had on Jewish thought and experience during this period.

To turn to a more specific discussion within this context, the study presents the main political ideas of three Zionist pioneers : Al-Kalai, Kalischer, and Hen. In the course of discussing their ideas, the study tries to determine the extent of Western influence on the rise of the Colonialist tendency in 19th century Jewish thought in Europe.